آليات الاستراتيجية التوجيهية في الرسائل السياسية للأمير عبد القادر

The mechanisms of strategic guidance in the letters of Prince Abdel Qadir political

نوريه لعرباوي[1] مفلاح بن عبد الله [2]

[1] جامعة وهران 1 أحمد بن بله، الجزائر larbaoui2019@gmail.com

[2] المركز الجامعي أحمد زبانه غليزان، الجزائر.meflahbenabdellah@Yahoo.Fr

تاريخ الاستلام: 2019/08/15 تاريخ القبول: 2019/09/09 تاريخ النشر: 2020/01/05

ملخص البحث

يندرج موضوع هذه الدراسة ضمن اهتمامات النظرية الحجاجية التي حاولت رصد كل ما من شأنه تحقيق الهدف الأساس من الخطاب ألا وهو الإقناع، ومن بين المفاهيم التي ارتكزت عليها مفهوم الاستراتيجية الخطابية التي يُعتمد عليها في تأويل مقاصد المتكلم، ومن بينها الاستراتيجية التوجيهية وتستند هذه الأخيرة على وسائل وآليات لغوية عملنا على بيانها والكشف عنها من خلال مدونة رسائل الأمير عبد القادر السياسية التي كشفت عن حكمة الأمير عبد القادر وحنكته في تصريف خطاباته الوجهة التي ارتضاها.

كلمات مفتاحية: خطاب.. استراتيجية.. حجاج.. توجيه.. الأمير عبد القادر.

ABSTRACT:

The subject of this study falls within the interests of the argumentative theory, which tried to monitor everything that would achieve the basic objective of the discourse, namely persuasion. Among the concepts that underpinned the concept of the rhetorical strategy on which to rely on interpreting the purposes of the speaker, Means and mechanisms of language we will work on the disclosure and disclosure through the code of letters Prince Abdul Qadir political which revealed the wisdom of Prince Abdul Qadir and his wisdom Grating speeches destination widely accepted.

keywords; ; speech; strategy; argument; Prince Abdel Qadir.

1. مقدمة:

يعدّ التأثير في المتلقي واستمالته إلى فعل معين انطلاقا من القضية محل الخلاف التي تكون بينه وبين المحاج مركز نظرية الحجاج؛ إذ يسعى هذا الأخير إلى إقناع المتلقي باختيار الحجج الملائمة عن طريق اللغة المستعملة التي يتطلّبها مقام الحجاج، ويتحقّق هذا الهدف بتفعيل وسائل وآليات تتعلّق في مجملها بمقاصد المحاج وطبيعة العلاقة التخاطبية بين أطراف التواصل، وهذا الاستغلال الذهني المسبق لإمكانات اللغة هو ما يكفل للمتكلم بناء خطة متّبعة أثناء التخاطب تُعرف باستراتيجية الخطاب.

[1] المؤلف المرسل: لعرباوي نورية

وتندرج رسائل الأمير عبد القادر السياسية ضمن الخطاب السياسي الذي يعدّ خطابا حجاجيا بامتياز؛ حيث قصد هذا الأخير التأثير في متلقيه وإقناعهم للانخراط في مشروعه القومي وهو بناء دولة جزائرية حديثة قادرة على صدّ العدوان الخارجي وطرد المحتل، وكلّ ذلك قصد تدعيم موقفه وتغيير تلك القناعات التي ترّسخت في أذهان الجزائريين (نقصد بها الروح القبلية التي كان عليها الشعب آنذاك) ويبني لديهم موقفا فكريا جديدا قائما على الوحدة والتماسك محقّقا بذلك الاقتناع الذاتي في نفوسهم، وفي ضوء هذا الطرح بنينا إشكالية هذا البحث محاولين الإجابة عن التساؤلات التالية: كيف استطاع الأمير عبد القادر إقناع جمهور متلقيه من مؤيديه وكذا إفحام خصومه المعارضين بمواقفه السياسية؟ وكيف تمكّن من جعلهم يذعنوا لمشروعه الوطني عبر خطاباته السياسية؟ ماهي الآليات الحِجاجية التي وظّفها الأمير في رسائله السياسة؟ .

ومن الاستراتيجيات الخطابية التي اعتمدها الأمير في رسائله السياسية الاستراتيجية التوجيهية وذلك بحكم المنصب الذي تصدّره والظروف التي أطّرت مسيرته، جعلته يعتمد على فعل التّرسّل للاتّصال بشعبه ومعاونيه وكذا في بناء علاقات دولية واسعة من خلال مراسلاته المتعددة مع كبار قادة العالم.

لقد استعان الأمير بتلك الرسائل لتقوم مقام فنون نثرية كالخطابة مثلا في الدعوة إلى الجهاد، وتوضيح بعض الأمور السياسية، وتوعية الشعب ووضعه أمام الصورة الحقيقية لهذا الصراع بينه وبين عدوه، " فقد كانت رسل الأمير لا تتخلّف عن موافاة الخلفاء في كل جهات الدولة بالتعليمات والنصائح والأخبار، فالرسائل أضحت حينئذ وسيلة للجهاد أثبت من خلالها الأمير إشرافه العملي على سير الجهاد."[1] ؛ ذلك لأنّ فن كتابة الرسائل يتشابه مع الخطابة فنيا، فهو يتفق معها كذلك في الغرض الأساسي في بداية ظهورها، فقد نشأ فن الكتابة الديوانية لرعاية أحوال الأمة الإسلامية ومصالحها.[2].

وقبل بيان آليات هذه الاستراتيجية يجدر بنا الوقوف على مفهومها ومقوّماتها.

2. مفهوم الإستراتيجية التوجيهية:

يسعى المرسل من خلال خطابه التوجيهي إلى الضغط على المرسل إليه لتوجيهه إلى مقاصد معينة يفرضها سياق التخاطب مثل سياق النصح أو الأمر أو التحذير، فخطاب الإستراتيجية التوجيهية " يُعد ضغطا وتدخّلا ولو بدرجات متفاوتة على المرسل إليه، وتوجيهه لفعلي مستقبلي معين "[3]، لذا ينزع المرسل إلى استعمال الإستراتيجية التوجيهية لغاية الوضوح وتبيان المقاصد وفق ما يقتضيه سياق التخاطب.

ولكي تحقّق هذه الاستراتيجية فعلها التوجيهي في النظام اللغوي لابد أن تتوفّر مقوّمات لدعم عملية التوجيه؛ منها سلطة المرسل ليلزِم المرسَل إليه بإنجاز فعل ما "لأنّ ما يجعل الخطاب إنجازا لفعل توجيهي هو ربطه بأنا المرسل المشتغلة بالخطاب لأنّها هي المُوجّه للخطاب الذي يُعبّر عن قصد المرسِل والمحقّقة لهدفه"[4]، إذ أنّ العلاقة السلطوية بين المرسل والمُرسل إليه عامل مهمّ لنجاح فعل التوجيه، وقد ضمن الأمير عبد القادر هذا الشرط من خلال فعل المبايعة الذي أصبح بموجبه المسؤول الأول عن البلاد، وما نتج عن هذه المبايعة من وجوب الطاعة والامتثال لأوامره.

تظهر الاستراتيجية التوجيهية التي اتّبعها الأمير في مخاطبته للقبائل وأعوانه منذ الوهلة الأولى التي تحمّل فيها المسؤولية من خلال فعل المبايعة.

3- الموجّهات التعبيرية في رسالة نداء البيعة:

يندرج فعل التوجيه ضمن نوع من الأفعال اللغوية التي صاغها سورل واصطُلح عليها بالأفعال التوجيهية وتتحدّد بأنّها " كل المحاولات الخطابية التي يقوم بها المرسل بدرجات مختلفة للتأثير في المرسل إليه ليقوم بعمل معين في المستقبل ".[5]

ولكي يحقّق المرسل فعل التوجيه في الخطاب فإنه يستعين بأدوات وآليات مختلفة منها أساليب الأمر، والنهي، والتحذير، والإغراء وذلك بالاستناد إلى دور السياق والمقام "فالأفعال التوجيهية تعبّر عن توجّه المرسل إلى المرسل إليه بأن ينفّذ بعض الأفعال في المستقبل و تُعبّر عن رغبة المرسل أو أمنيته بأن يكون خطابه أو بأن تُؤخذ إرادته التي انطوى عليها خطابه على أنّها هي السبب الرئيس أو الدافع الحقيقي في الفعل الذي سوف يأتي به المرسَل إليه مستقبلا."[6].

وبالنظر في أوّل رسالة سياسية بعثها الأمير عبد القادر إلى زعماء القبائل يدعوهم فيها إلى مبايعته نجده اعتمد في بناء خطاب "رسالة البيعة" على استراتيجية توجيهية تتكئ على هدف التوجيه بما يتلاءم وطبيعتها المقامية والسياقية، والتي من خلالها تتولد القيم الحجاجية وتنشأ المؤثرات الخطابية.

لقد تميّزت الفترة التي دعا فيها الأمير عبد القادر القبائل إلى مبايعته ببداية انقسام قبلي، اتّسم بطابع المعارضة القوية والمتطرّفة، لذا انحصرت بيعته في مجموعة من القبائل، ثم عمل الأمير بعد ذلك على تثبيت حكمه بإقناع القبائل الأخرى بإعلان الطاعة، محاولا تحقيق الولاء والسيادة، عن طريق الدفاع عن الجزائر، وإعطاء البعد الوطني لدولته لأنّه كان مدركا أنّه لا يمكن مواجهة المحتل إذا بقيت السلطة في البلاد موكلة إلى قبائل متفرقة، لذا حاول جمع تلك القوى في دولة وطنية موحدة[7]، مخاطبا إيّاهم قائلا:

" الحمد لله، إلى قبيلة كذا خصوصا أشرافها وعلمائها وأعيانها، وفقكم الله وسدّد أموركم وبعد:
فإن أهل معسكر وغريس الشرقي و الغربي وجيرانهم وحلفائهم؛ بني شقران والبرجيين وبني عباس واليعقوبيين، وبني عامر، وبني مجاهر وغيرهم قد وافقوا بالإجماع على مبايعتي، وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا، قد تعهّدوا أن يُطيعوني في السّراء والضرّاء، وفي الرّخاء والشدة، وأن يقدّموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدّسة. ومن أجل ذلك إذن تولّينا هذه المسؤولية الهامة-على مضض شديد-آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفرقة بينهم وتوفير الأمن إلى كل أهالي البلاد، ووقف كل الأعمال غير القانونية المنافية للشرع التي يقوم بها الفوضويون ضدّ المسلمين وصدّ وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا يريد أن يغلّ أعناقنا بقيوده، ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين يمثّلون السلطات العليا أنّ عليهم دائما واجب الطاعة والخضوع في كل أمورهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل"[8].

إنّ تأثير هذه الموجّهات التعبيرية و أشكالها اللغوية و مظاهرها المقامية مشروط بما انبثق عن تلك الموجّهات من أعمال -أفعال لغوية –كان يرمي خطاب الأمير عبد القادر إلى بلوغها و إصابتها في كيانات المتلقين عقولا وعاطفة حتى يحصل الإذعان و يتمّ الاقتناع، وأفعال الكلام التي رشحت بها تلك الموجّهات التعبيرية يمكن تجميعها فيما يلي:

1-3 التوجيه الإثباتي : يفيد الإثبات التأكيد على فكرة ما لذلك يعمد المتكلم إلى استعمال أدوات لتأكيد قوله ودفع إنكار المخاطب من قبيل " إنّ ولام التوكيد" حيث تنهض هذه الأدوات بوظيفة حجاجية تتمثّل في تقديم المسائل إلى المتلقي وفرضها عليه، ويُوظّف أسلوب التوكيد بقصد ردّ إنكار المخاطب ودفع الشك وقد اصطلح عليها عبد الله صولة-رحمه الله- بالموجّهات اليقينية "إذ تعدّ الضمان لحقيقة الكلام...ذلك أن الإقناع يحصل لدى المتلقي بمجرد

أنّ القضية المعروضة عليه جاءت موجّهة توجيه إثبات"[9]، وقد تضمّنت رسالة البيعة مجموعة من الموجهات الإثباتية منها قول الأمير:

" **إن أهالي معسكر وغريس .....قد وافقوا بالإجماع على مبايعتي** "غرضه إقناع تلك القبائل المعنية بالخطاب بضمّ صوتهم إلى القبائل المُشار إليها في أوّل الخطاب حتى يحصل الإجماع على مبايعته، وبذلك يحوز حق الشرعية في الحكم، "لأنّ جوهر الشرعية هو قبول الأغلبية من المحكومين لحق الحاكم في أن يحكم"[10]، فتوجيه الإثبات يدلّ على حصول إجماع ضمني في قبول البيعة من طرف أعيان القبائل ورسوخها في نفوسهم، ما يمثل حلقة وصل بين طرفي الخطاب-الذين بايعوه والذين لم يُبايعوه بعد-.

2-3 التوجيه الإلزامي : وصيغته اللغوية الأمر، ويستمد الأمر طاقته الإقناعية من شخصية الآمر وليس من ذات الصيغة وذلك حين يكون الآمر مؤهّلا لتوجيه الأوامر، ويظهر ذلك من خلال قول الأمير: " **وبناء عليه انتخبوني لإصلاح أحوال البلاد**" ، " **تعهّدوا أن يطيعوني في السراء والضراء...**" وغرضه من هذه الصيغة إلزامهم ضمنيا بالانضمام إلى أولئك الذين بايعوه بالإمارة ما أكسبه شرعية سياسية ودينية وخوّلته-نقصد المبايعة- أن يكون المسؤول الأوّل عن إقامة الدولة الجزائرية باعتبار البيعة الأولى. وهذا ما يُعبّر عن الوعي السياسي الكبير لدى الأمير الذي عمل على توثيق الصلة بينه وبين محكوميه وإضفاء صبغة المصداقية والثقة المتبادلة بينه وبين رعيته.

3-3 التوجيه بالتمني : ومداره على الصيغ التي تفيد تمنيا، بالاعتماد على فكرة ما أو رأي ما تقرّ به الجماعة، ومن ذلك تركيز الأمير عبد القادر على قيمة الاتحاد وحب الوطن والدفاع عنه كقيمة حجاجية لإقناع القبائل، إذ قال: " **آملين أن يكون وسيلة لتوحيد المسلمين**" وغرضه من هذه الصيغة دفع جمهور القبائل التي لم تبايعه بعد إلى الالتفاف حول مشروعه الوطني وهو بناء دولة جزائرية قصد مواجهة المحتل،" فكان داعي الجهاد يدفعه إلى أن يُلزم الأهالي بوجوب الانصياع إلى النظام، والتسليم بالالتزامات التي يقتضيها منه الكفاح ضد المحتل. "[11].

4-3 التوجيه بالربط والإحالة: تعدّ الإحالة من أهمّ الأدوات اللسانية التي تُحقّق ترابطا بين بنيات الحجاج، وتتمثّل وظيفتها في الإشارة إلى داخل النص أو خارجه، مما يجعلها وسيلة تأثير في المتلقي بربط ذهنه وتركيزه بمضمون ما يتلقّاه من بداية الحجاج إلى منتهاه، وقدرته على تفكيك ما يُوجّه إليه، وتحديد تلك الأدوات المستعملة لإعادة ربط هذه الأجزاء والنظر في دلالاتها وفقا لمقصود المحاج.[12]

ومن أوجه ذلك في خطاب الأمير عبد القادر إحالته إلى القبائل التي بايعته من خلال الصيغ التالية:

" قد **وافقوا** أن ينتخبوني، قد **تعهدوا**، أن تقدّموا، اشترطنا على كلّ **أولئك الذين يمثّلون** السلطات العليا..." وهدفه من الإحالة إلى كل أولئك بيان أنّ البيعة كانت عامة وأنّهم بناء على ذلك ملزمون-أي القبائل التي لم تبايعه بعد والمعنية بالخطاب-بأداء حقها بموجب الشرعية التي حازها وصدع فيهم من أوّل لحظة بأنّ مرجعيته ستكون الكتاب والسنة(شريعة القرآن)، وبذلك حسم الأمر في اختيار العقيدة التي سيسير وفقها المجتمع.

ليس هدفنا من التدقيق في تلك الموجّهات وما نتج عنها من أفعال لغوية قد تتوافق مع ما ذكرنا أو تختلف عنها زيادة أو نقصانا بقدر بيان ما تضمّنته تلك الموجهات من قيم حجاجية يصير بمقتضاها هدف الحجاج ليس تدقيق بعض الجهات المنطقية التي للقضايا بقدر ما هو تتبّع الآليات التي توخّاها الأمير عبد القادر لإقناع جمهور القبائل وحملهم على مبايعته وما رصدناه من تنويعٍ في ضروب التعبير عن ذلك المقصد، وهذا المسعى من طرف الأمير جعل

الوسائل التعبيرية التي وظّفها الأمير مَعْبَرًا ومَحْمَلا شكليا يثْوي وراء غاياته ومقاصده، وما التنويع في ذلك سوى دليل على خبرة الأمير وحنكته في تصريف خطابه وبنائه وفق ما عليه الجمهور، لذلك نفذ خطابه في نفوسهم وتمّ له مراده.

فقد ورد في التحفة أنّه تِبعًا لذلك قَدِم رؤساء العشائر وأعيان القبائل وخاصّة القوم، وجملة الأشراف والعلماء إلى مقر الأمير عبد القادر بمعسكر وأخذوا على أنفسهم بيعة الأمير الخاصة في 27نوفمبر1832، تلتها البيعة العامة في 04 فيفري1833، وتمّ التأكيد في نصّها أنّ المبايعة كانت عن رضى، وأنها على كتاب الله وسنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-، فلقي ذلك الاستحسان والاستجابة من الجميع، فقد رضي به الصغير والكبير، وأذعنت له الأعراض، وجاءته الوفود بالهدايا من كل ناحية.[13]

في هذا الخطاب حدّد الأمير خريطة طريق المقاومة وبناء الدولة الجزائرية الحديثة، ليصبح الأمير النموذج المثالي والقدوة الحسنة كزعيم سياسي وقائد حكيم، بنى علاقته مع محكوميه على أساس الطاعة والامتثال لا على الخضوع والإذلال، وهو بهذا حاول تصحيح أو تعديل الصورة التي رسمها الجزائريون للحاكم الذي يبتعد عن هموم شعبه ويعمل على تحقيق مصالحه.

4-الروابط الحجاجية في رسائل الدعوة إلى الجهاد:

ميّز كل من جاك موشلار ورو بول بين نوعين من الروابط ؛ الرابط اللساني والرابط الحجاجي "فالرابط اللساني يكمن في تلك العلاقة اللسانية التي تربط بين فعلين كلاميين داخل الملفوظ نفسه ، أمّا الرابط الحجاجي فيسمى بهذه التسمية عندما يحقق شرط ترابطه بين فعلين حجاجين، والذي ينجز فيه الملفوظ الوظيفة الحجاجية."[14] وبهذا تكتسي الروابط الحجاجية أهمية بالغة في اتساق وانسجام النص أو الخطاب باعتبارها آليات لغوية تربط بين الحجج من جهة وبين المقدمات والنتائج من جهة أخرى.

مفهوم الروابط الحجاجية في مختلف مراحل نظرية ديكرو لا يقتصر على ربط المقاطع الخطابية، وإنما يصل الوحدات الدلالية التي يضفي عليها ضربا من التوجيه، والقوة الحجاجية الواصلة وهو ما جعل دراسة الروابط عند ديكرو تهتم بالجانب التواصلي من الناحية الحجاجية والدلالية.[15]

ويمكن التمثيل لهذه الروابط بالأدوات (لكن، بل، حتى، لأن، لام التعليل، كي، الواو، الفاء، ثمّ...) التي أسهمت إسهاما فعّالا في تأطير خطابات الأمير السياسية بالخاصية الحجاجية، فقد احتوت هذه الرسائل على مجموعة كبيرة من الروابط التي تميّزت بدلالتها وأثرها الواضح في إبراز القيمة الحجاجية لتلك الأقوال وتوجيه دلالة المحاجة لذلك سوف نعمد في هذا الجزء من البحث إلى إعطاء صورة عامة لأهمّ الروابط الحجاجية التي تواتر ورودها في الرسائل والتمثيل لها بنماذج، معتمدين في تصنيف هذه الروابط على النحو الآتي:

4-1-الرابط الحجاجي لام التعليل:

تفيد لام التعليل أنّ ما بعده غرض وعلة غائية لإحداث ما قبلها، وذكر ابن يعيش (ت 643ه) " أنّ اللام قد تدخل على المصادر التي هي أغراض الفاعلين في أفعالهم...فكأنّها دخلت لإفادة أنّ ذلك الغرض من إيقاع الفعل المتقدم"[16]، ومن ذلك قول الأمير عبد القادر معلّلا سبب حصاره للتيجاني(شيخ قبيلة التيجانيين بالأغواط) الذي رفض مبايعة الأمير، فبعث رسالة لرؤساء القبائل يشرح فيها الأسباب التي دفعته لذلك يقول:

" فإنّ الله تعالى منذ أن ولانا أمر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تأليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد لقوله عز وجل ":ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"، وقد توجّهت هذه المرة

إلى الاغواط لجمع كلمتهم وإصلاح فسادهم فأظهر عامة أهلها غاية الطاعة والانقياد إلا ما كان من التيجيني ومن ينتمي إليه..."[17].

فالأمير من خلال توظيفه لهذا الرابط حاول بيان وشرح الأسباب التي دفعته إلى التوجّه إلى الأغواط ومنها إقناع أهلها بضمّ صوتهم إلى صوت القبائل الأخرى ومبايعته حتّى لا ينشق صف الجزائريين ويكونون تحت راية واحدة، إلا أنّ زعيمهم التيجاني رفض المبايعة وأصرّ على الانشقاق الأمر الذي جعل الأمير يقوم بالهجوم عليه وإرغامه على المبايعة.

فالروابط الحجاجية في الخطاب تعمل على تحديد العلاقات الحجاجية بين الجمل أو القضايا الرامية إلى تحقيق الفاعلية الإقناعية.

ومن بين الروابط الحجاجية التي وظّفها الأمير في رسالته لأهل فجيج يدعوهم للجهاد نجد:

2-4 -رابط العطف الحجاجي الواو : يعدّ الواو من أهمّ الروابط الحجاجية، إذ لا تقتصر وظيفته على الجمع بين قضيتين (حجتين) فحسب، بل يُستعمل حجاجيا بوصفه رابطا عاطفيا يعمل على ترتيب الحجج ووصل بعضها ببعض، كما يعمل على رسّ الحجج وتماسكها وتقويتها وعرضها في سلمية لتحقيق النتيجة المرجوة ، فالواو رابط حجاجي مدعم للحجج المتساوقة أو المتساندة، ويستعمل الواو حجاجيا وذلك بترتيب الحجج ووصل بعضها ببعض، بل وتقوي كل حجة منها الأخرى[18]، وتعمل على الربط النسقي أفقيا على عكس السلم الحجاجي، إذ يقوم المحاج من خلالها بتكثيف الحجج على المتلقي وبالتالي العمل على إقناعه.

ومن الشواهد على ذلك قول الأمير في رسالته التي وجهها لأهل فجيج: "

" أمّا بعد فإنّ الغيرة الإسلامية تحقّ لأمثالكم والاعتياضات الأنفية تجب على أقوالكم وأفعالكم، كيف لا والعدو الكافر– أذلّه الله- جال في بلاد المسلمين وصال ويسعي في خراب مدنهم وقصورهم بمساجدها المعدة للغدو والآصال، وحدّت شوكته، و تضافرت جيوشه على إجلاء المطيع منهم والعاصي، فأجمع عزمه وكيده... و فاض على الإسلام ظلام ليله حتّى كاد يخفي جدول فجره"[19].

يصف الأمير في هذا المقطع من الرسالة حال الوطن التي أصبح عليها فجاءت هذه الحجج متساوقة متساندة، تشكل أدلّة على الهدف السطّر من هذه الرسالة وهو الدعوة إلى الجهاد.

فالرابط الحجاجي الواو عمل على الربط والوصل بين الحجج الآتية :

- ✓ عُتو المحتل في البلاد.
- ✓ تدمير مدن ومساكن الجزائريين.
- ✓ تخريب المساجد.
- ✓ انتشار الفساد في أرض الوطن.

وعمل أيضا على ترتيبها بالشكل الذي يضمن تقوية النتيجة المطروحة ودعمها وهي أنّنا أصبحنا بحال ينبغي لمن له أنفة على دينه ووطنه أن يهبّ للذود عنهما، وبذلك فالجهاد أصبح ضرورة ملحّة خاصة في ظل الوضع الذي أصبحت عليه البلد ، وتؤكد نتيجة واحدة هي ضرورة تكثيف الجهود لطرد المحتل، وهذا الربط النسقي بين الحجج قد انخرط في سلميّة تدرّجية باتّجاه الحجة الأقوى.

إنّ هذا البناء التدرجي في الترتيب النسقي للحجج يُظهر قصدية القول ويُوجِد التوجيه الحجاجي، ذلك أنّ الخطاب الحجاجي لا يستثمر من التتابع تزويد المخاطب بالمعلومات فحسب، بل يسعى إلى التأثير فيه ودفعه إلى اتخاذ مواقف من الأفكار التي تشكّل موضوع الخطاب؛ فالحجج المترادفة قد اتّسقت واتّحدت باتجاه دعم النتيجة المطروحة وتقويتها بقوة الرابط (الواو) الذي أفاد التعليل والتبرير لمضمون النتيجة (ضرورة توحيد الجهود لطرد المحتل) كما اشتغل الرابط على التراتبية، وإدراج الحجج بحيث يتضح أنّ الحجة الأولى هي الحجة الأقوى لخدمة النتيجة المطروحة لوقوعها في أعلى السلم الحجاجي، فمفهوم المقاومة في نظر الأمير هي إحياء الدولة الجزائرية الوشيكة على الزوال بسبب تداعيات الانحطاط العثماني والعدوان الاستعماري، وفي نفس الوقت الدفاع عن سيادة الوطن وكرامة الإنسان الجزائري المسلم.

3-4 -الرابط الحجاجي الفاء:

تُعدّ الفاء من الروابط الحجاجية لما لها من أثر فاعل في ترتيب الحجج وربط النتائج بالمقدمات؛ إذ أنها تربط بين النتيجة والحجة من أجل التعليل والتفسير فهي أداة ربط تفيد التعليل والاستنتاج في الخطاب الحجاجي التداولي، ومن ثم فهي تجمع بين قضيتين غير متباعدتين في الدلالة على التقارب بين الأحداث، فضلاً عن الدلالة على الترتيب والاتصال، وأكثر ورودها كون ما بعدها أو المعطوف بها متسبباً عما قبله.

ومن أمثلة توظيف هذا الرابط في خطابات الأمير رسالته إلى خلفائه ووكلائه في الجزائر ووهران بشأن التيجاني:

" فإن الله تعالى منذ أن ولانا أمر المسلمين والنظر في مصالحهم لم نزل نجتهد ونسعى في تأليف قلوبهم على الاتحاد والخضوع لشريعة سيدنا محمد لقوله عز وجل ":ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم"، وقد توجّهت هذه المرة إلى الاغواط لجمع كلمتهم وإصلاح فسادهم فأظهر عامة أهلها غاية الطاعة والانقياد إلا ما كان من التيجينى ومن ينتمي إليه فإنهم تجاهروا بالشقاق وتظاهروا بالتصدي عن الوفاق، فأمرناهم بالرجوع إلى الحق وحذرناهم من شق عصا المسلمين غير مرة ، وناشدناهم الله في صون دمائهم وأعراضهم فلم يرجعوا عن غيّهم بل صمموا على قتالنا و استعدوا لمحاربتنا، فخفنا إن أهملنا أمرهم من سريان هذا الفساد إلى غيرهم، فيفوت المقصود الذي هو جمع الأمة على كلمة واحدة وطريقة متّحدة فأخذنا في حصار حصنهم والتضييق عليهم، ولما استشرفوا على الردى وكادت أن تعمل فيهم المدى طلبوا منا الأمان مع أنهم خدعونا مرات عديدة، فمنحناهم الصفح الجميل صونا لدمائهم وحفظا لأعراضهم لقوله تعالى" فاعفوا واصفحوا "وأمنّاهم على أن يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاءوا فخرجوا كلّهم منه إلا المستضعفين منهم وذهب التيجيني وحريمه وأولاده إلى الاغواط الغرابة وأبقى ابنه الكبير رهنا عندنا، فالحمد لله الذي أيّدنا بنصره على من عصى أمره فإنه لارب غيره لا معبود سواه."[20].

نلاحظ أنّ الفاء قد ربطت بين الحجة والنتيجة فكان ما بعدها من حجة قد علّلت وفسّرت النتيجة التي سبقت الرابط، فالحصار الذي ضربه الأمير على مدينة عين ماضي كان خوفا من سريان الفساد إلى غيرهم حيث نجد أنّ الرابط (الفاء) قد عمل على الترتيب والمسارعة وتوالي الأحداث، لأنّ الأمير كان حازما في ردع القبائل التي تتخلّى عن أداء واجبها الديني والوطني، إذ أفادت التعقيب مباشرة خلافا لما تفيده الأداة "ثمّ" في إفادة التراخي.

5-العوامل الحجاجية:

لئن كان الحجاج عند ديكرو وانسكومبر قائما على التوجيه، فإن العامل الحجاجي من شأنه أن يقوي درجة هذا التوجيه في الخطاب، وعليه صيغ تعريف العامل الحجاجي انطلاقا من مفهوم ديكرو وانسكومبر بالقول " إنّ وجود بعض الصرافم في بعض الجمل يعطيها توجيها حجاجيا...للوصول إلى نتيجة محددة دون غيرها " فهي حينئذ عناصر

لسانية وليست مقاميه، وهذا ما أكّده ديكرو في كتابه السلالم الحجاجية إذ يرى أنّ القيمة الحجاجية للملفوظ ليست نتيجة لمداه الإبلاغي لكن الجملة تكون حاملة لصرافم أو تعابير أو موجهات إضافة إلى محتواها الإبلاغي تصلح لإعطاء وجهة حجاجية للملفوظ تجعل المتقبل في اتجاه من الاتجاهات.[21].

وعلى الرغم من أن ديكرو وانسكومبر يُلحّان على ما للعوامل من بعد لساني، فهي عندهما قسم من الصرافم morphémes التي لها وظيفة دفع المتقبل إلى النتيجة ن "وذلك عبر اكتشاف الخطة الخطابية التي يقوم عليها الملفوظ عند احتوائه على العامل الحجاجي، بل إنّ ثمة من الباحثين على غرار روث أموسي من يرجع تناسق الخطاب وترابطه وتكامل بنيته إلى العوامل الحجاجة لأنها تساعد على اكتشاف وجهته الحجاجية.[22] ، فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية، أي بين حجة ونتيجة، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما، وتضم مقولة العوامل الحجاجية أدوات من قبيل: ربّما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا ما...إلا، وجل أدوات القصر". ومن العوامل الحجاجية التي وظّفها الأمير عبد القادر في رسائله نجد:

5-1-العامل الحجاجي كاد:

تدل كاد في اللغة على قرب وقوع الفعل، وهو المعنى المشهور لها، ولفعل المقاربة هذا استعمالات متعددة تتحدد بحسب قصدية المرسل وسياق خطابه، يأتي هذا الفعل عاملا حجاجيا لأنّه يقوم على الاقتضاء والربط بين أجزاء النص.

ولا يقتصر دور هذا العامل على الدلالة على المقاربة، بل يعمل على توحيد المضمون النصي الذي يُراد إقناع المتلقي به، وذلك " بتكثيف الفكرة وحصر إمكاناتها للفت انتباه المتلقي من خلال إبراز المضمون بمستوى قريب جدا، وذلك برفع درجة التخييل إلى مستوى استحضار الحدث،"[23] كما ورد في قول الأمير عبد القادر: "و فاض على الإسلام ظلام ليله حتّى كاد يخفي جدول فجره"[24].

وُظّف هذا العامل الحجاجي للدلالة على عموم خطر المحتل الذي طال مقدسات الجزائريين حتى حاول أن يقضي على هوية الجزائريين ، الأمر الذي يقتضي توحيد الجهود لمحاربة هذا المحتل.

5-2 العامل الحجاجي: النفي والاستثناء ب إلاّ:

إنّ العوامل الحجاجية بما فيها الحصر يضيق من تعدّد النتائج المستفادة من الملفوظ، ويجعل المخاطب في مواجهة حجاجية وأمام نتيجة واحدة، وهي أنّ هذا المتحدّث يروم بالحصر إقناع المخاطب بما يريده، إذ يُوجّه الخطاب وجهة حجاجية صارمة قاضية على تعدّد الاستلزامات مفضية إلى قسم واحد من النتائج.

يفيد النفي في اللغة العربية السلب، وهو يُؤدّى إمّا بأدوات نافية بسيطة (ما، لم، لن، ليس)، أو بأدوات نافية مركبة تتألّف من إحدى هذه الأدوات مع إلاّ، وفي الخطاب الحجاجي يتجاوز النفي وظائفه النحوية الصرفة ليصبح إنكارا " يتعقّب قولا سبق ادّعاؤه أو إثباته، فهو دائما فعل ارتجاعي أوثق بالرد...إنّ هذه الآلية تتدخّل لكشف التوهّم والمغالطة ومنازعة الخصم أطروحته أو فتح ثغرات في البناء الإقناعي الذي يستند إليه...فهي تشتغل بغاية مراجعة الخصم في دعواه."[25].

إذن يُعدّ النفي والاستثناء "بإلاّ "عاملا حجاجيا مهمّا بإفادته قصر شيء على شيء آخر في بنية النص ذلك لأنّ هذا العامل صورة من صور تقييد الفكرة والضغط على محتواها الخبري لكي يجعل المتلقي يُذعن لها، لذا فكثيرا ما

يُستعمل هذا العامل في توجيه القول وجهة واحدة نحو ما يعتقد به المتحدّث، ويريد أن يثبته في نفس المتلقي للدفاع عن قضية معينة ودفع الآخرين إلى الاقتناع بها.[26]

وقد وردت البنية الحجاجية القائمة على الحصر في الرسالة التي وجّهها الأمير إلى قبائل الدوابر والزمالة التي تمرّدت على طاعته، ورفضت الولاء له والدخول تحت سلطانه –كالتيجانيين- وطلبت حماية الفرنسيين " خاصة بعد فرضه معونة مالية على الأهالي اقتضتها ضرورات الجهاد وتسيير الدولة، ما ولّد لديهم جفاء لحكم الأمير، ونزوعا للخروج عن طاعته"[27] ، فراسلهم قائلا:

" اعلموا أنّ الغاية من قبولي لتقلّد هذا المنصب أن تكونوا آمنين على أنفسكم وأعراضكم وأموالكم، مطمئنّين في بلادكم، متجمّعين بوظائفكم الدينية، ولا يمكن أن أبلغ ذلك إلّا بمساعدتكم مالا ورجالا، وبهذا تعلمون أنّ المنافع الحاصلة منكم عائدة عليكم، ولا أظنّ أن يخطر ببال أحدكم أنّ الأموال التي تُخذ منكم ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلمكم وتحقّقكم أنّني غني بما خلّفه لي والدي. وبالجملة، لا نطلب منكم إلاّ ما تجبركم الشريعة على دفعه، وتجبرنا على أخذه، فراجعوا أنفسكم، وسُدّوا آذانكم عمّا يُلقيه أهل الفساد عليكم، وكونوا على كلمة واحدة فيما ينفعكم ويُصلح شؤونكم، ولا يتمّ لكم ذلك إلّا بطاعتنا، قال تعالى:" يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" ألا فليُبلغ الشاهد منكم الغائب."[28].

في هذا المقطع من الخطاب اعتمد الأمير على أسلوب النفي المقترن بأسلوب الحصر ليُؤكّد أنّ توليه قيادة الأمة ليس لتحقيق أهدافه الشخصية، وإنّما خدمةً لمصالح الوطن وأفراده مصحّحا بذلك اعتقاداتهم الخاطئة، وملغيا توهّماتهم، مستدركًا ما يعتبره حقيقة، وهو أنّ ما يطالب به القبائل من دفع للضرائب إنّما للإنفاق على الجهاد الذي يتمّ به تحرير البلاد من الاحتلال، وبذلك فالنفي في هذه الرسالة لم يقم على مجرّد الجحد، بل انبنى كذلك على التعويض، " أي نفي رأي أو جحد حكم غير مرغوب فيه وتعويضه برأي آخر، يعدُّه المحاج الصواب والحقيقة "[29]، ويتمثّل في أنّ هذا المطلب هو ما يُلزمهم به دينهم وعقيدتهم، فالجمل الحصرية ولّدت دعامة استند إليها الأمير في خطابه الإقناعي ليشدّ انتباه المخاطب ويحصره في مقاصد الخطاب ومراميه، إذ جاءت دعوته تأكيدا وإقرارا بحقيقة أن لا سبيل إلى تحقيق أهداف المقاومة إلاّ بالانضواء تحت حكمه والامتثال لطاعته.

6-خاتمة:

اتضح مما سبق تركيز الأمير على هدف المقاومة فسخّر كل طاقاته الخطابية لتحقيق هذا الهدف الذي كان صورة لفكر وسلوك الأمير، كما أبانت هذه الرسائل بمتنها الحجاجي وتنوّع آلياته على عزم الأمير الشديد على إثبات الذات وإنقاذ الكيان الوطني والتمسك بوحدة الوطن والمجتمع، فالمقاومة في فكر الأمير أساس قيام الدولة على اعتبار أن الدولة فاقدة السيادة لا وجود لها والاستعمار في نظر الأمير أراد محو كيان الدولة الجزائرية بالقضاء على سيادتها، وعلى هذا الأساس فالدولة الحديثة حسب الظروف المحيطة بعهد الأمير تستمد وجودها من صميم المقاومة ولهذا ركّز الأمير على هذا الهدف الخطابي وجعله مركز خطاباته.

لقد تضافرت آليات الحجاج اللغوية الباعثة على التأثير والإقناع داخل رسائل الأمير حيث اضطلعت الموجّهات اللسانية بدور حجاجي سمح بتوجيه الملفوظ حسب مقاصد المتكلم، رشح عنها جملة من الأفعال اللغوية؛ كالدعوة إلى الطاعة والدخول في البيعة والتعبئة للقتال التي تعد من أهمّ الأفعال اللغوية في رسائل الأمير السياسية لما يتميّز به هذا الشكل الخطابي من صفة الرسمية والقوة التنفيذية التي تكفل له تحقيق أهداف الخطاب.

كما عملت الروابط الحجاجية على نقل الملفوظ من بنية الإخبار والإبلاغ إلى بنية الحجاج فتحقّق بذلك تعديل فكرة أو معتقد، كما ساهمت العوامل الحجاجية في الحفاظ على ديمومة القضية ومساندتها في الخطاب إذ تختزل هذه العوامل الحجاجية الحجة والنتيجة معا.

وجدنا الأمير يحاول إقناع مخاطبيه بأفكاره ومعتقداته داعيا إياهم إلى الالتفاف حول مشروعه القومي واستنهاضهم للذود عن قيم هويّتهم، فبنى خطابه الحجاجي وفق هذه الوجهة.

الهوامش:

[1] عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2002، الجزائر. 2002، ص191

[2] يُنظر: عبد الرزاق بن سبع، الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، دط، دت، الجزائر، ص399

[3] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004، ليبيا، ص 309.

[4] المرجع السابق، ص 324.

[5] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ، دار الفارابي، 2007، ط2، بيروت، لبنان، ص105.

[6] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 337.

[7] يُنظر: حنان لطرش ، الثابت والمتحوّل في سياسة الأمير عبد القادر عبد القادر، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر عبد القادر، قسنطينة الجزائر، المجلد 06، العدد 03، 2012، الجزائر، ص09 .

[8] محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج1، الإسكندرية، 1903، مصر. ، ص96-101.

[9] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، ص 320.

[10] أبو القاسم سعد الله، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر، ج1، عالم المعرفة، ط 2009، الجزائر.ص22.

[11] عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة ، ص40.

[12] يُنظر: ج.ب.براون، و ج يول ، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق: محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود، 1997، م.ع.السعودية. ، ص230 .

[13] يُنظر: محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ص131.

[14] Reboul et Moschler, : Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, Edition seuil 1994. P 282.

[15] يُنظر: بوسلاح فايزة، السلالم الحجاجية في القصص القرآني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات، إشراف عبد الحليم بن عيسى، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات والفنون جامعة وهران، 2014-2015، الجزائر. ، ص146.

[16] موفق الدين أبي البقاء يعيش بن يعيش الموصلي، شرح المفصّل، ج6، قدّم له إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، 2001، لبنان ، ص20 .

[17] محمد بن عبد القادر ، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ص120.

[18] يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص472.

[19] عبد الرزاق بن سبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص420.

[20] محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر،، ص160.

[21] Voir: Ducrot Oswald, Les échelles argumentatives, éd de Minuit, 1980, Paris, p55.

[22] يُنظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2001، تونس، ص32

[23] مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، منشورات ضفاف، ط1، 2015، لبنان.، ص108 .

[24] عبد الرزاق بن سبع، الأمير عبد القادر وأدبه، ص105.

[25] عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب السياسي، خطبة معاوية بن أبي سفيان أنموذجا، ضمن كتاب الحجاج في الخطاب مقاربات تطبيقية، مؤسسة آفاق،ط1، 2017، المغرب.ص227 .

[26] يُنظر: مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، ص108-109.

[27] عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي قراءة في فرادة الرمز والريادة ، ص186.

[28] محمد بن عبد القادر، 1903، ص119.

[29] عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، بنان، منشورات ضفاف– منشورات الاختلاف، ط1،2013، لبنان. ، ص39 .